# أسباب ضياع صقلية من أيدي المسلمين

أ.أحمد عقون
كلية العلوم الاجتماعية والعلوم الإسلامية
جامعة باتنة - الجزائر

في هذا المقال سأتناول بإيجاز شديد العوامل التي أدت إلى افول نجم جزيرة صقلية و خروجها من أيدي المسلمين، و سأبين أنه بينما كان المسلمون في تناحر و تنافس و إيثار المصلحة الشخصية عن الوطن و الدين، في هذا الوقت كان النورمانديون يتقدمون بخطى حثيثة في عمق الجزيرة، و يستولون على أجزائها واحدا تلوى الأخر إلى أن وطدوا فيها لأقدامهم و تملكوها بكاملها، و تولوا كلها إلى يوم الناس. هذا و لم ينس البحث أن يعطي فكرة موجزة عن الناحية الاجتماعية و الاقتصادية و العلمية لصقلية خلال الحكم الإسلامي لها، هذه النواحي التي كانت مزدهرة إلى درجة كبيرة، لكن ذلك لم يمكن للأجناس الإسلامية في هذه الربوع، حيث أبى كل واحد من ساسته إلا أن يكون الحاكم و إلا فلينته الوطن و الدين و الانتماء و كل شيء! ! .

إذا فصقلية هذه البلدة الجميلة، يرجع تاريخ فتحها إلى أوائل القرن الثامن الميلادي، لما كلف الأمير زياد الله الأغلبي قاضي القيروان أسد بن الفرات للسير على راس حملة عسكرية إلى هذه الجزيرة[1].

و قد تولى أمر صقلية، بعد أسد ، من قبل الأغالبة في شمال إفريقية، عدد من الولاة، بذلوا ما في وسعهم لتوطيد الحكم العربي الإسلامي في هذه الجزيرة ، و منهم: زهير بن عوف، و العباس الأفصل بن يعقوب، و أحمد بن الأغلب[2] .

و في سنة 345 هـ تولى حكم صقلية أمراء الأسرة الكلبية، و في أيامها بسط المسلمون سلطانهم على الجزيرة كلها، ما عدا بعض القلاع والحصون على الساحل الشرقي، و أخضعوا لسلطانهم جنوب إيطاليا ووصلوا إلى ( نابلي)، إلا أن و هنا تطرق إلى هذه الأسرة عندما استشرى

التنازع و العصبية بين أفرادها؛ إذ أنه ما إن اقعد أبا الفتوح يوسف الكلبي (379-388 هـ)، فالج، حتى حدث أول تصدع في حكم الكلبيين، يتمثل في اختلاف بين جعفر بن أبي الفتوح يوسف، و أخيه علي، الذي انتهز فرصة الخلاف العنصري في صقلية، و استمال إليه البربر و العبيد ضد أخيه، و انتهى الأمر بإعدام علي، و موت الكثير من مشايعيه، و نفي من في الجزيرة من البربر، ز قتل العبيد عن أخرهم [3].

و في سنة 410 هـ، لما قامت ثورة في (بلرم) ضد جعفر بن يوسف لاستخفافه بأهل صقلية، تدخل والده المشلول، أبو الفتوح يوسف و هدأ الأمر بعزل ابنه جعفر، و استبداله بابنه الآخر أحمد الملقب بأكحل [4] .

و كان الأكحل يعتمد على ابن له يسمى جعفر أيضا، كان يعتمد عليه عند خروجه للغزو، فرأى ابنه هذا، أنه لا يمكن حكم صقلية و الثبات بها، إلا بإيقاع التفرقة بين الصقليين و الإفريقيين بالتمييز بينهم في المعاملة؛ و حاول أول الأمر أن يعتمد على فريق الصقليين، فرفض ذلك وجوههم و كبارهم، و حذروا من هذه الفتنة قائلين: " إننا قد صاهرناهم و أصبحنا و إياهم شيئا واحدا ، فلا يمكن أن يُفضّل بعضنا على بعض" و لما أخفق جعفر مع الصقليين، خاطب زعماء الأفارقة في الموضوع، و لسوء الحظ، قبلوا اقتراحه و لبوا طلبه، و منذ ذلك الحين، أصبح الأفارقة هم المفضلون في الأمة، و أعفوا من دفع الضرائب بينما أثقل كاهل الصقليين بالإتاوات و دفع الخراج،و وقع من جراء ذلك اضطراب عظيم، و استعد النورمان الذين كانوا يراقبون عن كثب فساد رأي المسلمين لإنزال الضربة القاضية عليهم[5].

و لم يعد الصقليون يطيقون هذه العنصرية و سار منهم نفر إلى المعز بن باديس، و شكوا إليه ما حل بهم و طلبوا منه أن يكونوا تحت طاعته، وإلا سلموا البلاد للروم،و استجاب لطلبهم و سير معهم ولده عبد الله على راس جيش كبير، فدخل "بلرم" و حاصر أحمد الأكحل و خلعه، و اختلف أمر أهل صقلية ، إذ حاول بعضهم أن يعيد أحمد الأكحل إلى الحكم، مما اضطر بعضهم الآخر إلى قتل هذا الأخير، ثم لم يلبثوا أن تنكروا لعبد الله بن المعتز أيضا و طردوه و ولوا عليهم صمصمام الدين، شقيق أحمد الأكحل [6].

و كان صمصمام ضعيفا مفلولا و به زال حكم الكلبيين، عندما أخرج من "بلرم" حوالي سنة 440 هـ، و سيطر على صقلية جماعة من الزعماء، كان همهم الوحيد تحقيق أطماعهم، إذ استقل القائد بن منكود بـ"مازر" و " طرابنش" و " الشاقة" و "مرسالة" والقائد علي بن نعمة المعروف بابن الحواس بـ"قصر يانة" و "جرجينت" و غيرهما، و ابن الثمنة "بسرقوسة" و "قطانية" [7].

- و قد كان السبب الرئيسي الذي أدى إلى خروج صقلية من أيدي المسلمين هو الخلاف الذي طرأ بين ابن نعمة و ابن الثمنة؛ إذ صادف أن تزوج هذا الأخير بميمونة أخت ابن نعمة، ثم إنه جرى بينها و بين زوجها كلام، أغلظ كل منها للآخر فأمر ابن ثمنة و هو في حالة سكر أن تفصد زوجته لتموت، و لولا ابنه للقيت حتفها؛ إذ لم يتوان في استدعاء الأطباء لها فعالجوها إلى أن شفيت، و لما أفاق ابن ثمنة من سكره ندم عن فعلته و اعتذر لها، فأظهرت قبول عذره و بعد مدة استأذنته لزيارة أخيها، فأذن لها بذلك و سير معها التحف و الهدايا، و لما وصلت قصت على أخيها، ما كان من زوجها، فحلف ألاّ يعيدها إليه، و قامت الحرب بين الأميرين خسرها ابن ثمنة، وبدافع من اليأس ذهب حوالي سنة 444 هـ ، إلى جنوب إيطاليا و عرض الجزيرة على النورمان، و كان يأمل أن تسلم له بعد أن ينالها النورمان، إلا أن أمله كان في غير محله؛ إذ ما إن دخل هؤلاء الجزيرة حتى بدؤوا يخططون للاستيلاء عليها كلها[8].و بينما نشط النورمان لأخذ صقلية لم يتردد مسلموها في طلب مساعدة إخوانهم بإفريقيا إذ استصرخوا المعز بن باديس الصنهاجي، رغم تنكرهم من قبل لابنه، و أسرع هذا الأخير في تلبية دعوتهم فأرسل أسطولا ضخما شحنه بالرجال و السلاح و العتاد، لكن الله قضى يومئذ بهلاك الأسطول، و لا مرد لقضائه، إذ ما كاد يصل مدينة "قوصرة" حتى أصابته زوبعة أتلفته كله و لم ينج من أهله سوى قليل فكانت هذه النكبة فاتحة عهد ضياع صقلية[9].

و لما تولى تميم بن المعز حكم تونس (إفريقية)، لبى هو أيضا دعوة الصقليين لمساعدتهم ضد النورمان؛ فجهز بعض قطع اسطوله، و حمله ثلة صالحة من بقايا جنده و أرسل به تحت قيادة ابنيه، علي و أيوب، فتوجه الأول إلى " جرجينت" أما الثاني فنزل بـ"بلرم"، فتفاءل الناس خيرا بهذا المدد و استأثر أيوب بحب "الجرجنتيين" فغار منه ابن الحواس، وحاول أن يخرجه من الجزيرة، ودارت بينهما معركة قتل فيها ابن الحواس [10].

و بينما كان المسلمون يعيشون في تنافس و تناحرن و إيثار المصلحة الشخصية، كان النورمان يتقدمون في عمق الجزيرة و يستولون على أجزاء منها، و كان منتهى النكبة أن تألب جماعة من المسلمين ضد ايوب، على مرأى و مسمع من النورمان، مما اضطره إلى الانسحاب سنة 461هـ ، إلى المهدية [11].

و في سنة 467هـ استنصر أهالي صقلية، مرة ثانية، تميما بن المعز فأرسل أسطولا صغيرا أغار به على "تقوطرة" في مقاطعة "قلورية" و في العام التالي أنزل جنود قرب "مازر" إلا أنهم صدوا من طرف النورمان. و قد عاث "روجار" [12]. النورماندي فسادا في صقلية لما وقف بالمرصاد ضد غارات المسلمين على العموم، و ضد الغارات الداخلية التي كان يقوم بها "ابن عباد" [13] الصقلي ضد النورمان على الخصوص [14]. و لم يتمكن روجار في أول الأمر من القضاء على ابن عباد؛ إذ بينما قام الصراع بين النورمان و البيزنطيين سنة 474 هـ، انتهز ابن عباد الصقلي الفرصة، و جدد نشاطه الحربي، حيث تغلب على قائد "قطانية" النورماني، (كان مسلما ثم تنصر) و استولى على مدينته ، إلا أن النورمان هزموه فيما بعد، و ابعد نحو الجنوب، و في سنة 477 هـ ، توجه ابن عباد إلى "قلورية" و "تقوطرة"، و عاد ظافرا، و رأى روجار أنه لا بد من اتخاذ موقف حاسم من سلوكه، فتصدى له عند "سرقوسة" باسطول ضخم و حطم سفنه، و قضى عليه سنة 479+هـ، و استولى في السنة نفسها على "سرقوسة" و "جورجينت" [15].

-و بينما كان ابن عباد الصقلي و غيره من المسلمين يجاهدون ضد النورمان، قبيل استيلاء هؤلاء على كامل الجزيرة كانت أخبار المجاهدين تتوارد على أسماع الشاعر ابن حمديس الصقلي[16] في

الأندلس[17] ، فيقوى أمله في ألا يتمكن النورمان من أخذ صقلية، و ينظم شعرا يشيد فيه ببني بلده صقلية، و يثني على شجاعتهم و فراستهم في الحرب، و مما قاله:

و متخذي قمص الحديد ملابسا

إذا نكل الأبطال في الحرب أقدموا.

كأنهم خاضوا سرابا بقيعة

ترى للدبا فيها عيونا عليهم.

صبرنا لهم صبرا لكرام ولم يسغ

لنا الشهد إلا بعدما ساغ علقم[18]

و لم ينس أن يحثهم أثناء جهادهم، للصمود في وجه العدو، و يثير الحماسة في قلوبهم للدفاع عن الحمى، يقول:

بني الثغر لستم في الوغى من بني أمي

إذا لم أصل بالعرب منكم على العجم.

دعوا النوم إني خائف أن تدوسكم

دواه و أنتم في الأماني مع الحلم.

فردوا وجوه الخيل نحو كريهة

مصرحة في الروم بالثكل و اليتم.

و صولوا ببيض في العجاج كأنها

بروق بضرب الهام محمرة السجم[19]

-هذا ، و بعد سقوط سرسوقة و جرجينت، و القضاء على ابن عباد الصقلي، لم يبق آنئذ بأيدي المسلمين سوى "نوطس" و "بثيرة" و "قصريانة"، و لما تنصر أمير قصريانة ابن حمود،

و منح إقطاعا في قلوريـــة، لـم كيـن مـن أمـر بلدتـه إلا الاستسـلام و الخضوع [20]، و في سنة 484 هـ، (1091م) سـقطت آخـر المـدن الإسلامية؛ نوطس و تبعتها بثيرة، و انتـهت بذلـك عمليـات الاسـتيلاء النورماني على المدن الصقلية، و تمكنوا من احتلالها كاملة[21].

و بلغ الخبر ابن حمديس شاعر صقلية، و انطفأ آخر بصيص مـن أمله في استرجاع صقلية، فنظم قصيدة سينية من اثنين و ثلاثيـن[22] بيتـا يبكي فيها صقلية،و يعلل سبب زوالها، و يتألم عليها و على أهلها، و ممـا قاله:

أعـاذل دعني أطلق العـبرة التـي

عدمت لهـا من أجمل الصـبر حابسـا

فإني امرؤا آوي إلى الشجن الـذي

وجدت له فـي حبة القلـب ناخسـا

لقدرت ارضي أن تعـود لقومهـا

فسـاءت ظنونـي ثم أصبحـت يائسا

وعـزيت النفـس لمـا رأيتهـا

تكابـد داء قاتـل السـم ناجسـا

وكيف وقد سيمت هوانا، و صيرت

مساجدها أيـدي النصـارى كنائسـا

إذا شاءت الرهبان بالضرب انطلقت

مع الصبح و الإمساء فيـها النواقسا

-ذلكم عرض موجز عن تاريخ جزيرة صقلية، منـذ فتحـها إلـى جـلاء المسلمين عنها، و تملك النورمانيين لها، أما الجوانب الأخـرى فألخصـها فيما يلي:

-لقد كانت صقلية قبل الفتح الإسلامي مستعمرة بيزنطية، يدفع أهلها الضرائب الباهظة لخزينة الإمبراطورية، لدرجة أن أقفرت البلاد، و خلت من السكان، و رضخ من بقي من أبنائها تحت عبء الاضطهاد الديني و الثورات العسكرية، و لم تكن دولة البيزنطيين هي المستغل الوحيد لصقلية، بل شاركتها في ذلك الكنيسة، فعانت كثيرا من الجباية و انتشار نظام الإقطاع و كثرة الاستغلال، و لم يحقق أبناؤها فيها أدنى مكانة اجتماعية معتبرة[23]، و لما تم الفتح الإسلامي، لها استطاع المسلمون بتطبيقهم للشريعة الإسلامية السمحة الداعية إلى أن المؤمنين اخوة، و أن لا فرق بين عربي و أعجمي إلا بالتقوى، أن يحققوا الأمور التالية:

-استطاعوا من الناحية الاجتماعية الاقتصادية أن يقضوا على الاقطاعات الكبيرة،و يقربوا بين الطبقات و يحققوا وحدة بين الفاتحين من جهة و بين سكان البلاد من جهة أخرى[24].

-و من الناحية الدينية، جذب المسلمون الناس إلى اتباع دينهم فدخله كثير منهم، و قد زاد من إقبالهم عليه فرارهم من الجزية و حبهم لسماحة هذا الدين الذي من طبعه جذب القلوب و دفع الناس إلى الإقبال عليه[25].

-و من الناحية العلمية و الفكرية، عمل المسلمون في صقلية على نشر الثقافة بإعفاء المعلمين الذين اتخذوا التعليم حرفة، من الجهاد و الحروب، القائمة فيما بينهم أو بين أعدائهم [26] كما شجعوا على نشر العلم و المعرفة فيها، لما ساعدوا على نقل الكتب الهامة التي يتداولها الطلبةو الأساتذة في المشرق و الأندلس و القيروان، مثل "الصحاح"، و " اليتيمة" و "المدونة" و "الموطأ"، و كتاب "الإيمان و شرائع الإسلام" لابن جعفر القصري، وكتاب "التعريف"، ودواوين كثيرين من الشعراء كابن الرومي، و ذوي الرمة، و كثير غرة، و جرير و غيرهم[27]، و ليس بعيدا كما يرى إحسان عباس أن تكون صقلية، قد أفادت من كتب الطب التي كانت منتشرة انتشارا واسعا في شمال إفريقيا منذ بدء العهد الفاطمي[28].

و هكذا يبدو جليا أن المسلمين الذين حكموا صقلية لمدة تربوا على قرنين و سبعين سنة قد نجحوا أيما نجاح في تأثيرهم تأثيرا بالغا، في النواحي الاجتماعية و العلمية و الفكرية. و استطاع أثرهم لقوته أن يمد

جذوره إلى عصور الفتح النورماني و ما بعده، إلا أن السبب الرئيسي لفقدهم صقلية إنما يرجع بالدرجة الأولى إلى ما عاشه حكامها و ولاتها و أجناسها المسلمة، من خلافات و أطماع شخصية، و ليس أدل على ذلك، كما سبق أن ذكرت، من الخلافات التي أثيرت في أخريات أيام الدولة الكلبية و التي كانت سببا في زوال حكمهم، و من الفتن و الدسائس التي شاعت و تفاقمت بين أمراء الطوائف و استنجاد بعضهم بالنورمان، أملين أن ينتزع هؤلاء صقلية من أيدي إخوانهم، و يسندون حكمها إليهم و نتيجة لهذا الإهمال و التخاذل سقطت صقلية شهيدة. و محيت من خريطة البلاد الإسلامية، و لم يبق بها سوى آثار المسلمين الراقية في الفكر و الحضارة و الصناعة.

## المصادر و المراجع


1.د.عزيز أحمد -تاريخ صقلية الإسلامية-دار العربية للكتاب-1980 م، تعريب أمين توفيق الطيبي/ص14

2.د. سعد إسماعيل شلبي. ابن حمديس الصقلي. مطبعة دار غريب/القاهرة/ص15

3.د.إحسان عباس/العرب في صقلية/مطبعة دار الثقافة/ط2/بيروت 1975 ص47.

4.ميخائيل أماري/المكتبة الصقلية/ليسبيك/1957/ص414

5.إحسان عباس/العرب في صقلية/ص47.

6.ابن خلدون/تاريخ ابن خلدون/دار الكتاب اللبناني/بيروت/1968/ج4/ص210.

7.د.إحسان عباس/العرب في صقلية/ص28.29.

8.نفسه /ص49/و د.عزيز أحمد/تاريخ صقلية الإسلامية/ص62

9.أحمد توفيق المدني/المسلمون في صقلية و جنوب إيطاليا/مطبعة الشركة الوطنية للنشر و التوزيع /د.ت/

الجزائر/ ص155.

10.نفسه /ص160. 160

11.أحمد توفيق المدني/المسلمون في صقلية و جنوب إيطاليا/ص 162

12.روجار الأول: ولد في نورماندية بفرنسا سنة 422 هـ (1031م)و توفي 494 هـ (1101م) ملك صقلية

بين سنتي (454-494 هـ)

13.هنا هو اسمه عند (مالاترا) و لا تذكره المصادر العربية. و قد كان أماري يظن أنه ابن بريدة الذي مدحه

ابن حمديس الصقلي، ثم عدل عن رأيه، و من العجيب أن ابن حمديس الشاعر المهتم ببطولات الصقليين لا

يذكر هذا البطل (نقلا عن هامش كتاب العرب في صقلية لاحسان عباس، ص131)

14.د.أحمد عزيز/تاريخ صقلية الإسلامية/ص26. نقلا عن مالا ترا/مقال بإيطاليا15.د.إحسان عباس/العرب في صقلية/ص132/و د. أحمد عزيز/تاريخ صقلية الإسلامية/ص62.

16.هو من أصل عربي، ولد في مدينة سرقوسة الصقلية سنة 448 هـ، هاجر إلى الأندلس سنة 471هـ، دخل

بلاد المغرب بعد نفي المعتمد بن عباد، توفي سنة 527 هـ بجزيرة ميورقة، وقيل ببجاية، له ديوان شعر فيه غير

قليل من قصائد في رثاء صقلية أنظر: مقدمة ديوانه الذي حققه، إحسان عباس/03 و ما بعدها.

17.د.سعد إسماعيل شلبي/ابن حمديس/الصقلي/ص186

18.ابن حمديس/الديوان/ص415

19.نفسه/ص16

20.د.عزيز أحمد/تاريخ صقلية الإسلامية/ص62/نقلا عن تشالاندون /ج1/ص340.

21.د.إحسان عباس/العرب في صقلية/ص133

22.ابن حمديس/الديوان/ص274 و ما بعدها

23.د.إحسان عباس/العرب في صقلية/ص28 .29

24.نفسه/ص70/نقلا عن أماري/ج2/ص40.41

25.أحمد توفيق المدني/المسلمون في جزيرة صقلية و جنوب إيطاليا/ص 240 .241

26.ابن حوقل أبو القاسم/صورة الأرض/منشورات دار مكتبة الحياة /بيروت/ص90

27.د.إحسان عباس/العرب في صقلية/ص 90.92

28.نفسه/ص95